

التجربة الفلسفية والفكر الأيديولوجي العربي الحديث في فكر ناصيف نصار

## The philosophical experience and ideological thought of modern Arab in the thought of Nassif Nassar

ط.د/فطيمة تواتي<sup>1</sup>، أ.د/ جويدة جاري<sup>2</sup>

<sup>1</sup> مخبر الجماليات والفنون والفلسفة المعاصرة، جامعة الجزائر2(الجزائر)،

[fatima.touati@univ-alger2.dz](mailto:fatima.touati@univ-alger2.dz)

<sup>2</sup> جامعة الجزائر2(الجزائر)، [djaouidadjari@yahoo.fr](mailto:djaouidadjari@yahoo.fr)

تاريخ الاستلام: 2023/01/06 تاريخ القبول: 2023/02/09 تاريخ النشر: 2023/03/05

### ملخص:

تعالج هذه الدراسة بحث المفكر اللبناني المعاصر "ناصر نصار" عن مضمون فلسفي في الفكر الأيديولوجي العربي الحديث، فمشروع الإستقلال الفلسفي الذي يقترحه لا ينطلق من التبعية لتاريخ الفلسفة، بل من إبداع وممارسة فعل التفلسف بالنظر في الوجود الإنساني من حيث هو وجود تاريخي اجتماعي، يعتمد على قضايا ومشكلات المجتمع العربي وأزمته، وهو ما تجسد في الفكر الأيديولوجي الذي يشكل الوعي النظري للحركة القومية العربية، وما قدمه زعماء هذه الحركة لتحقيق النهضة العربية المنشودة. كلمات مفتاحية: "ناصر نصار"، الأيديولوجية، الفلسفة، الفكر العربي الحديث، الفكر القومي.

### Abstract:

This study deals with the contemporary Lebanese thinker Nassif Nassar's search for philosophical content in modern Arab ideological thought. And the problems of Arab society and its times, which is embodied in the ideological thought that constitutes the theoretical awareness of the Arab national

movement, and what the leaders of this movement presented to achieve the desired Arab renaissance.

**Keywords:** Nassif Nassar, ideology, philosophy, modern Arab thought, rational thought

\* المؤلف المرسل: فطيمة تواتي

1. مقدمة:

إن الواقع الذي آلت إليه الفلسفة في العالم العربي اليوم دفع بالعديد من المفكرين العرب للبحث عن عوامل وشروط تساعد على تحقيق نهضتها. والواقع أن هذا الوضع متأزم من عدة نواحي ليس من الجانب الفلسفي فقط بل من جوانب أخرى سياسية وثقافية واقتصادية... علماً أن الفلاسفة يحملون هموم المجتمعات العربية ومطالبها، ومن بين هؤلاء: المفكر اللبناني "ناصر" الذي ارتبط اسمه بمشروع الاستقلال الفلسفي، إن الدارس لكتابات الرجل يجد أنه نحت لنفسه مساراً فلسفياً أكثر مما يدعي اقتراح مشروع، فيبذل جهداً كبيراً في معالجة قضايا من قبل الحرية الديمقراطية الإيديولوجية التي أخذت حيزاً هاماً في كتاباته، وقد شكلت الإيديولوجية وما أحيط بها من متغيرات وقضايا سؤالاً محيراً لدى البعض فمنهم من رفضها، منهم من اعتبرها شكلاً جديداً من أشكال العمل والتفكير، لكن موقف ناصر منها يختلف عن الطرفين إذ يرى بضرورة تحليل الفكر الإيديولوجي تحليلاً نقدياً يمكننا من فهمها بكل انفتاح دون رفضها ذلك الرفض غير المبرر وضرورة التمييز بين الفلسفة والإيديولوجية لأن هذا التمييز يفتح المسالك أمام حركة الإبداع الفلسفي التي يجب أن تنطلق من الوجود الاجتماعي التاريخي وهو المجال المطلوب لنزع الاعتبار عن الوعي الفلسفي فينا والذي تجسد في الأفكار التي طرحها زعماء الفكر الإيديولوجي العربي الحديث.

## التجربة الفلسفية والفكر الأيديولوجي العربي الحديث في فكر ناصيف نصار

وقد حاولنا في هذه الدراسة الوقوف على الإرهاصات الفلسفية الموجودة في الفكر الأيديولوجي الذي مثلته الحركة العربية القومية في العصر الحديث وبالضبط في المنتصف الأول من القرن العشرين وذلك بمعالجة الإشكالية التالية: هل يمكننا القول بأن أطروحات الفكر الأيديولوجي العربي تعبر عن مساهمة فلسفية حقيقية؟ وقد تفرعت عن هذه الإشكالية جملة من المشكلات الفرعية أهمها: ما هي الأيديولوجية عند "ناصيف نصار"؟ وما علاقتها بالفلسفة؟ و هل الاختلاف بين المفهومين يعني الفصل بينهما أم أنهما قد يجتمعان عند مفكر واحد؟.

### 2. مفهوم الأيديولوجيا:

قبل أن نغوص في نقد "ناصيف نصار" لإيديولوجية الفكر القومي واستخراج منها إرهاصات فكر فلسفي يجب أن نقوم أولاً بضبط مفهوم الأيديولوجيا.

### 1.2 التعريف اللغوي والاصطلاحي للإيديولوجيا:

هناك إجماع بين الباحثين في مضمار العلوم الإنسانية على غموض مفردة إيديولوجيا، وهذا الإجماع تؤكد المعطيات التي اقترنت بالمصطلح منذ البدايات الأولى لاستعماله إلى يومنا هذا، وإذا أردنا البحث عن الاشتقاق اللغوي للإيديولوجيا **IDEOLOGY** وجدنا أن المفردة تتكون من كلمتين يونانيتين الأولى: **IDEA** وتعني الفكرة، والثانية **LOGOS** وتعني العلم فتكون الترجمة الحرفية «علم الأفكار». (زيادة م.، 1986، صفحة 159)

أول من استعمل مصطلح الأيديولوجيا المفكر الفرنسي ديستو دو تراسي **DESTUTT DE TRACY** (1745-1836) وتعني الكلمة عنده: «العلم الذي يدرس الأفكار، بالمعنى الواسع للكلمة، أي مجمل واقعها الوعي من حيث صفاتها وقوانينها وعلاقتها بالعوالم التي تمثلها، لا سيما أصلها». (أيكين، 1963، صفحة 63)

## (فطيمة تواتي، جريدة جاري)

أي تعني اكتشاف العلاقات والقوانين التي تربط الأفكار بالوقائع التي تشير إليها.

وإذا كانت الإيديولوجيا قد ارتبطت بدور الفكر في التاريخ والصراع السياسي والاقتصادي والمجتمع، فإن هذه القضايا قد اندرجت بصورة واضحة في مشروع الفلسفة الماركسية لأن هذا المفهوم قد تبلور داخلها، ولأن ماركس MARX كان يلج على ضرورة ربط الوعي الإيديولوجي بصور الصراع الطبقي كما تمظهرت في التاريخ (بلقريز، 2010، صفحة 38) فالظروف المادية أي الواقع هو الذي تبني على أساسه الأفكار وليس العكس.

ولا تكون: «الأفكار السائدة في حقبة معينة من التاريخ، إلا ترجمة ذهنية للعلاقات المادية الغائصة في تلك الحقبة» (بلقريز، 2010، صفحة 44).  
ولأن هذا المفهوم قد ظهر في الفكر الغربي، فهذا يعني أن الفكر العربي المعاصر لم يكن له نصيب منه بل إن العديد من المفكرين العرب قد تعرضوا له مثل عبد الله العروبي، وياسين الحافظ، و"ناصر" هذا الأخير الذي ارتبطت مشكلة الإيديولوجية في الفكر العربي المعاصر باسمه نظراً لاهتمامه بها في مؤلفاته مثل: طريق الاستقلال الفلسفي، الإيديولوجية على المحك، الفلسفة في معركة الإيديولوجية، مطارحات للعقل الملتزم فماذا يقصد بالإيديولوجية؟ وما هو مفهومها عنده؟.

## 2.2 تعريف الإيديولوجية عند "ناصر":

بعد وقوع عدة مجادلات معرفية حول المفهوم يحاول "ناصر" تقديم تعريف يستوفي المعنى فيقول: «إن الإيديولوجية نظام من أفكار اجتماعية، يرتبط بمصلحة جماعة معينة، ويشكل أساساً لتحديد أو تبرير فاعليتها الاجتماعية في مرحلة تاريخية معينة». (ناصر، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 43)

### التجربة الفلسفية والفكر الأيديولوجي العربي الحديث في فكر ناصيف نصار

ومن خلال التعريف يعتبر أن الإيديولوجية نظام جماعي، وجملة من التصورات التي تعبر عن أفكار ومفاهيم تنسجم فيما بينها لتشكل لنا نسقاً يعبر عن نفسه تاريخياً، من خلال الدفاع عن أفكار الجماعة. تعد ظاهرة طبيعية، وليس أي مجتمع بمنأى عنها، لأنها امتداد للطبيعة البشرية، وللنزوع نحو الاعتقاد. وبما أنها ترتبط بالجماعة، فهدفها المنفعة، وتستمد مشروعيتها من قضايا الجماعة، كما أن هناك عدة عوامل تساهم في إنتاجها يقول نصار: «الفكرة الإيديولوجية ليست وليدة العقل وحده، إنها وليدة العقل والشعور والخيال، والإرادة والزرعة الباطنية، أي باختصار وليدة الذات بكل قواها». (نصار، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 45).

أي أنه لا يمكن رد هذا التفكير إلى مصدر واحد كالعقل، لأنه نتاج مختلف القوى الذاتية، بل يفرض هذا التفكير الخضوع التام للعقل لأنه يعبر عن مصلحة الجماعة.

### **3. بين الإيديولوجية والفلسفة:**

إن الإيديولوجية عند "ناصيف نصار" تفصح عن نفسها بوصفها قضايا اجتماعية مترابطة، أي أنها تتجه إلى الواقع المعيش ومشكلاته فتتخذ بهذا ماهية اجتماعية، وفي هذا يتحدث نصار عن مجموعة من الخصائص التي يتسم بها التفكير الإيديولوجي والتي تميزه عن التفكير الفلسفي نظراً لاختلاف طبيعة وموضوع ومنهج وهدف كل منهما على الآخر، لكن هذا التمايز لا يفصل بين الفلسفة والإيديولوجية فصلاً تاماً لذلك ركز "ناصيف نصار" على ضرورة ضبط حدود العلاقة بينهما، فالتفكير الإيديولوجي يحمل بين طياته نواة فلسفية حيث أن هناك تداخل بينهما لكن ليس لدرجة التماثل، يقول نصار: «إن الفلسفة والإيديولوجية تشتركان في السعي إلى توجيه الفاعلية الإنسانية، لكن الإيديولوجية ترتبط بفاعلية جماعة تاريخية بعينها، بينما تهتم الفلسفة بفاعلية النوع الإنساني بأسره».

### (فطيمة تواتي، جريدة جاري)

(نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجية، ط2، 1986، صفحة 174) أي أن الفلسفة عند نصار تتقدم على كل أنماط التفكير التاريخي بقدر ما تسعى للتعبير عن هذا الوعي بكل مقتضياته، وبواسطتها نهتم بالمبادئ ونؤسس نقد الواقع التاريخي على مبادئ إنسانية كونية. (نصار، باب الحرية (إنبثاق الوجود بالعقل)، ط1، 2003، صفحة 21)

إن نقد الإيديولوجية - حيث لا يقتصر النقد على إظهار الجانب السلبي بقدر ما يرتكز على تحليلها- لا يعني إلغاء الإيديولوجيات ودورها في الحياة الاجتماعية، لكنه نقد يكشف الأبعاد الخرافية التي تعد من مكوناتها، ومن ثم الدخول في حوار معها. (نصار، مطارحات للعقل الملتزم (في بعض مشكلات السياسة والدين والإيديولوجية)، د.ط، صفحة 109)

إن هذا الطرح يوضح أهمية دراسته وتحليل الإيديولوجية ومكانتها في مشروع نصار، فقد استمرت جهوده في نقد الإيديولوجية التي كانت الشغل الشاغل لعمله التحليلي النقدي الذي يهدف إلى إبداع فلسفة عربية معاصرة تقوم على الإنسان في وجوده الاجتماعي التاريخي، وتعتمد على خلق الذات بالذات.

أي أن النهضة العربية لا تقوم على الموقف الاتباعي من تاريخ الفلسفة، بل تنطلق من واقعنا وأزمنا، تتناول قضايا تمنا كالحرية، أو المساواة أو العدالة أو التقدم أو الاستبداد وهي قضايا يرى "ناصيف نصار" أنها تندرج ضمن «الفكر الإيديولوجي العربي الحديث» وهو ما جعله يعتبرها قضايا من صميم الفكر الفلسفي، فنجد في كتابه الاستقلال الفلسفي لا يتردد في إدراج الفكر الإيديولوجي العربي الحديث ضمن دائرة الفكر الفلسفي.

نظراً للمواضيع التي تناولها أولاً، ثم لأن عند زعمائه صفات الفكر الفلسفي كالصدق والإخلاص والاجتهاد وربط النظر بالعمل ثانياً. (نصار، طريق الاستقلال

## التجربة الفلسفية والفكر الأيديولوجي العربي الحديث في فكر ناصيف نصار

الفلسفي (سبيل الفكر العربي إلى الحرية والابداع)، ط2، 1979، الصفحات 48-49).

وبما أن كل نظام إيديولوجي يتضمن نواة فلسفية، والروح الفلسفية تنزع إلى أن تتحول إلى طريق في الحياة، أي تتجسد في ممارسة اجتماعية تاريخية معينة، فإن نصار يرى في الفكر الإيديولوجي العربي "مضمون فلسفي معين" وجب الاشتغال على ما يختزنه من كثافة فلسفية، لاسيما تلك النصوص التي اعتبرها نصار تدخل ضمن أعمق إنتاج إيديولوجي عربي حديث (نصار، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 41) المتمثل في كتابات نديم البيطار، أنطوان سعادة، وزكي الأرسوزي.

فيبدأ مفكرنا كعادته بعرض أهم نماذج الفكر القومي ثم نقدها ومناقشتها ويبدأ بنقد نظرية المفكر اللبناني نديم البيطار (1924-2014) في الإيديولوجية الانقلابية.

### **4. نقد "ناصيف نصار" لنظرية نديم البيطار في الإيديولوجية الانقلابية:**

إن العلاقة بين الفلسفة والإيديولوجية ليست علاقة انفصال تام، كما أن التمايز بينهما لا يمنع من اجتماع التفكير الإيديولوجي والتفكير الفلسفي عند مفكر واحد، أو في مؤلف واحد، وهو ما يصدق على مؤلف الإيديولوجية الانقلابية لنديم البيطار، إذ يطرح فيه قضية الإيديولوجية في العالم العربي بصورة جذرية شمولية تكاد لا توجد عند مفكر عربي آخر. (نصار، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 53)

إذ يدرس البيطار الانقلابات الكبرى التي تمت في التاريخ إبتداءً من النصرانية وإنهاءً بالنازية، ويستخدم مفهوم الانقلاب للدلالة على جذرية التغيير، الذي يتجاوز التغيير الاقتصادي والسياسي إلى مستويات أخلاقية، روحية ونفسية، فتعتبر دراسته للانقلابات دراسة فلسفية اجتماعية يركز فيها على الجانب الإيديولوجي

### (فطيمة تواتي، جريدة جاري)

فيحاول إستخلاص قانون إيديولوجي عام يميز الإيديولوجيات التي قادت ووجهت تلك الانقلابات، يعتبر هذا القانون اللبنة الأولى من لبنات صياغة الإيديولوجية الانقلابية العربية. (العروي، 1993، صفحة 117)

هذه الأخيرة التي يسير تطور الواقع العربي باتجاه بلورتها، ذلك أن المجتمع العربي لم يعرف انقلاباً منذ ظهور الإسلام والإيديولوجية التقليدية التي سيطرت على المجتمع قد انهارت وتركت فراغاً روحياً هذا من جهة و من جهة أخرى ضعف الحركة العربية القومية الثورية حيث أن مشكلة الحركة العربية القومية هي أن النظريات التي تملكها لا تجازي ثورتها (نديم، 1982، صفحة 4)، على حد تعبير بيطار، ومنه فالحركة القومية الثورية العربية بحاجة إلى فلسفة حياة جديدة تتمكن من تغيير الكيان العربي تغييراً جذرياً ولا تكتفي ببعض التحولات السياسية والاجتماعية فقط. ومنه يعتبر نصار أن سؤال نديم البيطار حول طبيعة الإيديولوجية الانقلابية وخصائصها يعتبر سؤالاً فلسفياً وليس تاريخياً، كما أن وضعه لمجموعة من القوانين التي يجب على الإيديولوجيات الخضوع لها يعبر فعلاً عن وعي الإنسان وسيادته، كما يشيد ناصيف نصار بكل ما قدمه بيطار لكن التساؤل الذي يطرحه هو: كيف تستطيع الحركة العربية الثورية الإفادة من فلسفته؟ لقد طرح البيطار قضية الانقلابات التاريخية كطريقة تساعد الوعي العربي الثوري على الانقلاب، لكن هل مقارنة الانقلابات التاريخية يعني بالضرورة إبداع إيديولوجية انقلابية في الحركة العربية؟ يجيب نصار: «ينبغي الاعتراف بأن الدراسة العلمية لصورة الإيديولوجية الانقلابية شيء، وإبداع الإيديولوجية الانقلابية نفسها شيء آخر» (نصار، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 58)، ذلك أن الإبداع الإيديولوجي الانقلابي لا يتقيد ضرورة بنموذج إيديولوجي انقلابي.

## التجربة الفلسفية والفكر الأيديولوجي العربي الحديث في فكر ناصيف نصار

يعرف البيطار الإيديولوجية بأنها: «أية فلسفة حياة تفسر علاقة الإنسان بالمجتمع والتاريخ تفسيراً عاماً شاملاً يكشف عن منطق التاريخ وحركته». (نديم، 1982، صفحة 54)

لكن هذا التعريف بحسب نصار لا يضع فارقا بين مفهوم الإيديولوجية ومفهوم الفلسفة الكلية للحياة التاريخية، إذ أن البيطار يعتبر أن الإيديولوجية الانقلابية امتداد فقط للفلسفة الانقلابية، فنحن لا نقرأ خطابات الإيديولوجيين لكننا نقرأ مثلاً فلسفة روسو أو مونتسكيو وتتم مناقشتها والاستفادة منها في التفكير الاجتماعي (نصار، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 63)، هذا الطرح يلزم أي باحث بضرورة التمييز بين التأثير الفلسفي والتأثير الإيديولوجي وهذا ما يرجع إليه دائماً "ناصيف نصار" فمن خلال مناقشته الإيديولوجية الانقلابية تبين له أكثر أن عدم التمييز بين الفلسفة والإيديولوجية قد يؤدي إلى التباسات كثيرة قد تعيق تجاوز وضعية الفكر الاجتماعي العربي الثوري المتأزمة.

إن استعمال البيطار لمفهوم غير محصور للإيديولوجية وعدم تمييزه بين الفاعلية الفلسفية والفاعلية الإيديولوجية يحول دون كشف الواقع الاجتماعي في العالم العربي، بل بالعكس إن التمييز الدقيق بينهما يفتح أمامنا المجال لرؤية مختلف الإيديولوجيات التي يزخر بها العالم العربي، مهما كانت مختلفة، متداخلة، متناقضة هي تؤثر في حياة الشعوب العربية، وعليه إذا اعتبرنا كل فكرة تتبناها جماعة معينة تظهر في ممارساتهم الاجتماعية «إيديولوجية»، يصبح هدف البيطار في إيداع فلسفة اجتماعية جديدة ممكناً لكن بالبحث عن المضمون الفلسفي في أهم المذاهب الإيديولوجية العربية الثورية.

### (فطيمة تواتي، جريدة جاري)

ومنه يمكننا القول بأن البيطار في إيديولوجيته الانقلابية يعتبر فيلسوفاً، درس وحلل، وقارن بإطلاع موسوعي بين مختلف الإيديولوجيات، حتى أن "ناصر" أطلق عليه لقب فيلسوف الإيديولوجية الانقلابية.

وفي سياق دراسة ما تضمنته كتابات المفكرين العرب التحديثيين من فكر فلسفي، وبما أن المحور الرئيسي لحركة المجتمعات العربية هو محور التحرر والبناء القومي، يقترح ناصر تحليل كتابات اثنين من أهم المفكرين الاجتماعيين الذين عبروا عن إدراكهم لضرورة الفلسفة وحاولوا أن يتفلسفوا هما أنطون سعادة وزكي الأرسوزي، ففيما تتمثل مساهمتهما في هذا المجال؟

### **5. أنطون سعادة ومطلب الاستقلال الفكري:**

يهدف مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي أنطوان سعادة (1904-1949) من خلال أعماله إلى نقد الوجود العربي التقليدي، وإلى تأسيس مجتمع جديد يريد التخلص فيه من التخلف الذي يعانيه، على أساس فلسفة إنسانية اجتماعية جديدة إذ يعتبر من أهم السياسيين الذين اهتموا بالفلسفة وشددوا على ضرورتها في الحركة الثورية.

إن البحث عن النواة الفلسفية في النظام الإيديولوجي ليست عملية سهلة ولذلك وجب في تحليل العقيدة السورية القومية الاجتماعية تمييز بين ما هو سوري فيها من أمة سورية وحزب ونتائج نظرياتها على الواقع، وبين ما هو فلسفي على حد قول سعادة النظر إلى الحياة والكون والفن. (ناصر، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 79)

قبل أن نطرح أفكار سعادة الفلسفية ننوه على أنه لم يعرضها عرضاً منسقاً كفلسفة، بل كان مشروعه اجتماعي تاريخي يبحث عن التحرر القومي، فبدأ موقفه الفلسفي بمطلب الاستقلال الفكري واعتبره أهم شرط من شروط النهضة القومية والاستقلال القومي فلا يمكن المطالبة باستقلال سياسي والأمة تخضع لفكر أجنبي،

## التجربة الفلسفية والفكر الأيديولوجي العربي الحديث في فكر ناصيف نصار

ويكون هذا الاستقلال بالإطلاع الفكري الهادف إلى تعزيز النهضة القومية يقول سعادة >> التكلم فيما تعرفه عن بعض الفلاسفة الغربيين، أو المفكرين السياسيين الغربيين ... لا يكفي ليكون نهضة .. النهضة لها مدلول واضح عندنا وهو خروجنا من التخبط والبلبله والتفسخ الروحي بين مختلف العقائد إلى عقيدة جلية صحيحة واضحة نشعر أنها تعبر عن جوهر نفسيتنا وشخصيتنا القومية الإجتماعية، إلى نظرة قوية جلية إلى الحياة والعالم.. >> (انطون، 1951، صفحة 7)

أي أن إصدار أحكام مختلفة عن هذا الفيلسوف أو ذاك، أو عن مدارس فكرية دون موقف واضح يربط بين الأفكار لا يعتبر نهضة، إن الاستقلال الفكري الذي يريده سعادة هو جزء من استقلال نفسي تعبر به الحركة الثورية القومية العربية عن نفسها ككيان مستقل يعبر عن نظرة الأمة إلى الحياة والعالم.

لكن هذا الاستقلال لا يعني الانعزال والانفلاق والتفوق على الذات، بل يقتضي الانفتاح على العالم وعلى مختلف التحولات التي تحدث فيه، والاهتمام بالتراث القومي وتعزيزه مقابل التيارات الغربية، استقلال مثل هذا يؤهل المشتغل بالفلسفة لكي يكون فيلسوفاً لا ناقل فلسفة لأن دراسة تاريخ الفلسفة ليست هي فعل التفلسف، فعل التفلسف ينطلق حين تتأمل الذات المشكلات الفلسفية تأملاً مباشراً، ويقارن هنا سعادة بين الفلسفة والأدب، فتجديد الأدباء ومطالعة الكتب الأدبية لا يعني ضرورة تجديد الأدب، بل إن هذا الأخير لا يكون إلا بالمعانة الحقيقية لمشكلات الحياة. (نصار، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 85)

كذلك الفلسفة النظرة الجديدة فيها يجب أن تنطلق من حياة الإنسان، من معاناته، ومن مشكلاته المستجدة في كل عصر، لا شك أن مفهوم سعادة للاستقلال

### (فطيمة تواتي، جريدة جاري)

الفكري ينطلق من المبدأ الإيديولوجي لفكره، الفكر القومي، ولذلك فإن هذا التفلسف ينطلق من أجل النهضة القومية ولا يكون خارجها.

إن المبدأ الأساسي في نظرة سعادة الفلسفية هو مبدأ الحياة وإرادة الحياة التي ترتبط بالعقل، الذي يوليه سعادة أهمية قصوى لدرجة رفض التصورات الميتافيزيقية والغيبية والإيمان فقط بسلطة العقل، ودوره في حياة الإنسان إذ أن: «العقل في الإنسان هو نفسه الشرع الأعلى و الشرع الأساسي، هو موهبة الإنسان العليا: هو التمييز في الحياة» (انطون، 1951، صفحة 115) يدافع أنطون سعادة عن أولوية العقل وأهميته حتى أنه يرفض الحدس لأنه يأتي بعد العقل ولا يمكن الاعتماد عليه في الأعمال الإنسانية.

لكن تمجيد سعادة للعقل لا يرى فيه نصار إمكانية تصنيف سعادة ضمن الفلاسفة العقلانيين، لأنه يقول بتحكيم العقل لكنه لا يتقدم على فاعلية الحياة، فالعقل وفق هذا المعنى هو النور الذي يضيء الطريق لإرادة الحياة، لكن ما علاقة هذا الطرح بالفكر الإيديولوجي؟ إن فاعلية الفرد عند سعادة وتحقيقه لإرادة الحياة لا يكون بمعزل عن الجماعة، فهو يرفض النزعة الفردانية لأنها حسبته تهدم الماهية الاجتماعية التي تقتضي إدراك الفرد لماهيته وشخصيته وكذلك يجب أن يدرك شخصية الجماعة التي ينتمي إليها، فتجده يركز على الشخصية الجماعية، والعمل الجماعي والمصير الجماعي، وهذا ما يعبر عن تحقيق إرادة الحياة في الإنسان يقول سعادة: «الفرد من المجتمع، هو الكل الذاتي» (انطون، 1951، صفحة 99) إن تركيز سعادة على أهمية المجتمع ودور الجماعة يردده "ناصر" إلى سبب إيديولوجي يكمن في طبيعة الفكر القومي وضرورة الوحدة العربية.

و يشير ناصر في هذا السياق إلى أن تحمس سعادة للفكر القومي لم يمنعه من التفكير في إمكانية دخول البشرية في طور المجتمع الواحد يتساءل في مؤلفه

## التجربة الفلسفية والفكر الأيديولوجي العربي الحديث في فكر ناصيف نصار

نشوء الأمم: >> ومن يدري هل يقدر للإنسانية أن تصير مجتمعا واحداً في مستقبل العصور>> (انطون، 1951، صفحة 89)

لكن هذا المجتمع لا يمكن أن يتأسس وحده بل ينطلق من أسبقية الوجود القومي كمرحلة أولى، والمجتمع الإنساني العام يتكون من شيئين هما الأساس المادي والبناء النفسي، أما الأول فيتمثل في العلاقات الاقتصادية التي تسد حاجات الإنسان الأساسية، أما الثاني فيتمثل في ردة فعل الجماعة تجاه الطبيعة ولكل مجتمع بناء نفسي يعبر به عن تطلعاته وحاجاته وتجاوبه مع التاريخ، وأهم مظهر يحلل البناء النفسي هو الدولة بما تنطوي عليه من قوانين وحقوق وواجبات. (نصار، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 105)

إن الروابط الاجتماعية ليست اقتصادية فقط، بل هناك جوانب نفسية ومصالح تتعلق بنوعية الحياة الجيدة التي يساهم الكل في تحقيقها. هذه بعض أفكار سعادة التي حللها نصار والتي ارتأينا من خلالها أخذ فكرة عن حضور فلسفة سعادة إن أمكننا القول في الفكر الإيديولوجي العربي الحديث. المفكر الثالث الذي ينقب نصار عن مضمون فلسفي في كتابته هو المفكر السوري زكي الأرسوزي (1899-1968).

### **6. زكي الأرسوزي والبحث القومي العربي:**

يعتبر نصار زكي الأرسوزي أبرز مفكري البحث القومي العربي والسبب في رأيه يعود إلى: >> أن المضمون الفلسفي في فكر الأرسوزي أشد بروزاً وأمتن إحكاماً وأعمق غوراً من المضمون الفلسفي في كتابات أولئك المفكرين>> (نصار، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 137)

### (فطيمة تواتي، جريدة جاري)

ترتبط الفلسفة في فكر الأرسوزي بحركة النهضة العربية المتأثرة بالحضارة الأوروبية الحديثة، لأنه لا توجد نهضة ولا يقظة للفكر العربي المعاصر دون مساهمة الفلسفة اعتماداً على العلم الحديث، وفقه التراث من خلال العودة إلى الحياة في ينبوعها: الطبيعة والإنسانية، أي أن العلم والتراث والحياة هي أركان النهضة عند الأرسوزي، وهي شروط الانبعاث القومي، وهذا ما عبر عنه في قوله: >> أما اليوم وقد استيقظنا من سباتنا على ضوء الحضارة الحديثة.. فما علينا إذن إلا استكمال شروط هذه اليقظة بالعودة إلى الحياة في ينبوعها الإنسانية والطبيعة. ونحن إذا كنا نبلغ الطبيعة بالعلم، فإننا نرتقي بالإنسانية بفقه تراثنا.<< (الأرسوزي، 1973، صفحة 13)

وبعد توضيح أن الحضارة الحديثة قد بددت كل الأوهام حول الطبيعة بالعلم والصناعة، أدرك زكي الأرسوزي أن نظرتها للإنسان إنما تستمد من نظرتها إلى الطبيعة، وهذا هو سبب الاختلال فيها، فلا يمكن أن نفهم الإنسانية بنفس الطريقة التي تفهم بها الطبيعة.

وهذا يتبنى الأرسوزي نظرة الحضارة الحديثة إلى الطبيعة والقائمة على العلم والصناعة، وإذا كانت النهضة العربية مرجوة فإن أساسها يجب أن يكون العلم والصناعة، لكن مع إضافة عنصر آخر وهو البحث عن المفهوم الصحيح للإنسانية في التراث، أي في الجانب الأصلي الذي يحمل مفهوم الأمة العربية، فإذا استطاع العرب بناء نهضتهم على العلم والصناعة، وكذلك على تصورهم الصحيح للإنسان في التراث، تتم بذلك رسالتهم في المرحلة الراهنة ويكونون قد اشتركوا ريادياً في الحضارة الجديدة. (نصار، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 142)

قد أراد الفكر القومي دخول العصر معتمداً على مقولة الأمة والتي تركز على فكرة البعث القومي و هو انبعاث الحياة في جسم الأمة، وتمتد جذور هذه الفكرة إلى

## التجربة الفلسفية والفكر الأيديولوجي العربي الحديث في فكر ناصيف نصار

بدايات عصابة العمل القومي بل في أول إعلان سياسي للأمة العربية في مؤتمر باريس سنة 1913، أي أنها لم تظهر مع زكي الأرسوزي لكنها نمت واشتدت معه في الحزب القومي العربي. (زيادة و آخرون، 1985، صفحة 34)

وقد قدمت الإيديولوجيات القومية الأمة كمظهر خاص يحقق هدفاً أسمى، وهو خلق روح قومية، وعليه يصبح الرجوع إلى الينابيع مطلباً قومياً طالما أن روح الأمة لن تتحقق إلا في العودة إلى ذاتها.

وتصبح هنا المشكلة الحقيقية هي في كيفية تحديد الطريق الذي يؤدي إلى فلسفة زكي الأرسوزي "فلسفة الحياة" (نصار، طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2، 1979، صفحة 143)، وهو فقه التراث القومي الأصيل: «تراث الأمة العربية قبل أن يسيطر عليها الدخيل والهجين، وهكذا يصبح فقه التراث هو الإطار العام للبحث الفلسفي، وهو المحدد لإشكالية فلسفة الحياة القومية، والسبب في ذلك هو أن كل أمة أصلية تتميز بنظرة خاصة إلى الوجود». (بركات، 1984، صفحة 393)

بمعنى أن الانبعاث لا يكون بدون تلك النظرة ونظرة الأمة العربية للوجود مستوحاة من الحياة نفسها، وهنا يكمن الدور الذي تلعبه الفلسفة عند الأرسوزي، إنه دور حضاري يحقق النهضة، يعتمد على إرساء فكرة البعث القومي على قواعد صحيحة من جهة، وإسهام العرب في التراث الإنساني من جهة أخرى، فإذا كان العقل الغربي قد نجح في الكشف عن نظام الطبيعة، فإن العقل العربي ينحو إلى الحقيقة الروحية.

## 7. خاتمة:

### (فطيمة تواتي، جريدة جاري)

استناداً إلى القضايا المطروحة في هذا المقال نقول أنه كان ل"ناصر" نصار "أسهم إسهاماً فعلياً في الفكر الفلسفي العربي، المعاصر فمشروعه الاستقلال الفلسفي يتجاوز فيه تاريخ الفلسفة، بل يحث على إبداع فكر ينطلق من صميم ذاتنا، يعتمد على صياغة مفاهيم جديدة تخدم الواقع الفكري، والعمل على ترميم مفاهيم قد صعب على الكثير استيعاب مكوناتها مثل الإيديولوجية وبعد تحليلنا لتصور نصار للتفكير الإيديولوجي أمكننا أن نستنتج ما يلي:

• الماهية الاجتماعية للفكر الإيديولوجي جعلت منه يتجه إلى الواقع المعيش ومشكلاته، لأنه يرتبط بفاعلية جماعة تاريخية معينة.

• إخضاع الفكر الإيديولوجي للتحليل النقدي يعتمد على ضرورة التمييز بين الفلسفة والإيديولوجيا وضبط العلاقة بينهما بكل انفتاح موضوعي لأن الخلط بينهما يمثل عقبة أمام النهضة العربية الثانية.

• كون هناك فوارق بين الإيديولوجيا والفلسفة واختلاف طبيعة كل منهما عن الآخر لا يعني الفصل بينهما فصلاً تاماً، فهناك تداخل بينهما جعل مفكرنا يقر بأن في كل تفكير إيديولوجي نواة فلسفية، فإذا كانت الفلسفة تنزع إلى أن تتحول إلى طريقة حياة وتتجسد في ممارسة اجتماعية معينة، فإن الإيديولوجية بما هي فكر اجتماعي محكومة بسياق تاريخي معين لذا من المهم برأيه وعي تاريخية هذا المعنى، لأنه من خلال هذا الوعي يمكننا الكشف في رحم الأنماط الإيديولوجية العربية عن البذرات الفلسفية الكامنة بها. ولم يكن عرضه لنموذج فيلسوف الإيديولوجية الانقلابية الذي وجده في نديم البيطار وبحثه عن إرهابات فلسفية في فكر كل من أنطون سعادة وزكي الأرسوزي، تبنيه نصوص أهم منظري التيار القومي واعتبارها نصوصاً حاملة لمضمون فلسفي إلا دليل على إلحاحه على فعل التفلسف والإبداع وهو ما يثبت وجود مساهمات فلسفية عربية تحاول شق طريقها للوصول إلى الحلول الممكنة للوقوف على الأزمة الفكرية التي يعانها المجتمع العربي.

8. قائمة المصادر والمراجع:

- البيطار، نديم. (1982). الايديولوجية الثورية. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- زكي الأرسوزي. (1973). المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، ط1. دمشق، سوريا: مطابع الإدارة السياسية.
- سعادة، انطون. (1951). نشوء الأمم، ط2. دمشق، سوريا: دار الجامعية.
- سليم ناصر بركات. (1984). الفكر القومي وأسس الفلسفة عند زكي الأرسوزي، ط3. دمشق، سوريا: مطابع مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر.
- عبد الإله و (أخ) بلقرين. (2010). بين المعرفي والأيديولوجي في الفكر العربي المعاصر، ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- عبدالله العروي. (1993). مفهوم الايديولوجيا، ط5. دار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي.
- معن زيادة. (1986). الموسوعة الفلسفية العربية، ج1، ط1. بيروت، لبنان: معهد الأنماء العربي.
- معنى زيادة، و آخرون. (1985). بحوث في الفكر القومي العربي، إشكاليات نظرية، ط1. بيروت: معهد الإنماء العربي.
- ناصر نصار. (2003). باب الحرية (إنبثاق الوجود بالعقل)، ط1. بيروت: دار الطليعة للنشر والتوزيع.
- ناصر نصار. (1986). الفلسفة في معركة الأيديولوجية، ط2. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- ناصر نصار. (1979). طريق الإستقلال الفلسفي (سبل الفكر العربي إلى الحرية والإبداع، ط2. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

(فطيمة تواتي، جريدة جاري)

- ناصر. (1979). طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي إلى الحرية والابداع)، ط2. بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- ناصر. (د.ط.). مطارحات للعقل الملتزم (في بعض مشكلات السياسة والدين والإيديولوجية). بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- هنري أيكن. (1963). عصر الإيديولوجية، ت: فؤاد زكريا. مكتبة الأنجلو المصرية.